حول مخطوطة :

الابتسام عن دولة ابن هشام

لأبي العلاء إدريس

د. عبد الهادي التازي

في تأليفه (دليل مؤرخ المغرب الأقصى) أشار الفقيه سيدي عبد السلام ابن سودة رحمه الله في الجزء الأول إلى هذا المخطوط النفيس الذي يحمل عنوان (الابتسام عن دولة ابن هشام وديوان العبر في أخبار أهل الثالث عشر).

وقد قال عنه : إنه لأحد الكتاب الذي كان يحمل إسم «إدريس» ولم يقدم ابن سودة معلومات أكثر من هذا عن مؤلف المخطوط، غير أنه ذكر أنه كان كاتبا مع الوزير أبي عبد الله محمد بن إدريس العمراوي وزير السلطان مولاي عبد الرحمن والمتوفي سنة 1264 = 1847.

وبعد أن يذكر أن كتاب الابتسام يفتتح بهذه الجملة : «فسبحان من يبدئ ويعيد، ويحكم في خلقه بما شاء ويريد»... يفيد أن الكتاب يهتم بتاريخ دولة السلطان الجليل أبي زيد مولانا عبد الرحمن ابن مولانا هشام

المتوفي سنة 1276 = 1859. وبعد أن ذكر ابن سودة أنه توجد من الكتاب نسخة بخزانته الأحمدية، أفاد أن الأصل بخط المؤلف يوجد بخزانة أبي فارس عبد العزيز ابن محمد فتحا بن إدريس العراقي الحسيني...».

وقد كان يقصد إلى الفقيه العدل الثبت والد صديقي وزميلي في الدراسة الأستاذ سيدي الوافي العراقي الذي أوقفني على أصل الكتاب وتفضل بتقديم معلومات تكميلية تتصل بهذا «المخطوط» الذي أصبح اليوم بفضل الوسائل المتوفرة للتصوير ـ موجودا عند عدد من المهتمين بتدوين تاريخ المغرب وبخاصة الخزانة الصبيحية والخزانة الشرقاوية...

وقد أفادني الزميل أن الكتاب المذكور تملكه والده من تركة جده لأمه الموثق المؤرخ المولى عبد المجيد بن المهدي العراقي على ما تؤكده طرة بخط والده على الورقة الأولى من الكتاب. كما أفادني كذلك أن الطرة الثانية التي توجد في أعلى الصفحة الأولى هي بخط الفقيه الحجوي مؤلف كتاب الفكر السامي وقد علق بها قائلا يوخذ من ترجمة الوزير ابن إدريس أن إسم المؤلف إدريس وأنه أحد كتاب بنيقته (أي ديوانه)[1]...

---

1) ورد في الصفحة 127 من المخطوط ما يلي : «وكانت لي أمة أتسرى بها، فكان الفقيه يظن أني مغرم بها، فأنشدني ممازحا لي فقال :

إدريس ماذا التغالي	في حب هذي الأميه
حاكيت فيها غراما	أحوال غيلان ميه
اضحت حبابة لما	صرت يزيد أميه !

وأن الأثر الذي لاحظه المرحوم بن سودة في الكتاب كان حقا بدافع من منافسة لبعض من ورد الحديث عنهم في الوريقات المنثورة من قضاة وعلماء...!



الورقة الأولى من الكتاب يلاحظ أنها تضم أربعة خطوط : العنوان وهو خط المؤلف ومن أعلى اليسار خط الفقيه العلوي وتحته خط سيدي عبد العزيز العراقي ويليه قلم ولده سيدي الوافي مالك الكتاب.

والجـديـر بـالـذكر أن هـذا المخطوط ممـا لم يقف عليـه عـدد ممن كانوا يتوقون إلى الوصول إليه بسبب ضن مالكـه بـه، إذ كان تـاج مفرق خزانتـه اللهم إلا ما كان من النقيب مولاي عبد الرحمن بن زيدان في كتابه اتحـاف أعلام الناس عند ترجمته للسلطان مولاي عبد الرحمن[2].

لقد أحببت أن أنبه إلى هذا المخطوط بدوري نظرا لما يحتوي عليه من فوائد لا توجد في غيره كان منها ما يتصل بالتاريخ الدولي للمغرب مما ظل خفيا عن الذين كتبوا حول الموضوع، سواء منه علاقات المغرب بدول أوربا أو إمارات المشرق وخاصة الحجاز ومصر وطرابلس وتونس والجزائر..

وقد كان مما دعاني إلى هذا التنبيه كذلك أن مؤلف المخطوط يتحـدث أحيانا عن أيام السلطان المولى سليمـان التي نعلم أن كتـاب «إتحـاف النـاس» للنقيب مولاي عبد الرحمن بن زيدان، وقف عندها...

هذا فضلا عن أن المخطوطة كانت مما غاب عن البروفيسور بروفنصال في كتابه القيّم : «مؤرخو الشرفاء»...

وفي مقدمة (الابتسام) ذكر المؤلف أنه يقدم لنا «نوادر وأخبـار وعتهـا الأفئدة ورأت بعضها الأبصار...» الأمر الذي يؤكد أن الرجل لا يعتمد فقط على ما رواه الناس ولكنه شاهد عيان للتـاريخ... وقـد أكـد أنـه ـ خلافـا لبعض المؤرخين ـ سوف يقتصر على الحديث على ما شاهده هو أو عايشه... لقد عاش أولا الفترة الحرجة التي خلفت وفاة السلطان سيدي محمد بن عبـد

2) من المعلوم أن مخطوطات النقيب بن زيدان صارت إلى الخزانة الحسينيـة وهي تحمل هنـاك رقم 12490.

لقد عشنا كل الأخوة يتنافسون على الحكم إلى أن انتهت البيعة للسلطان مولاي سليمان الذي نشر أعماله بالتين بناء المساجد وتشجيع العلماء والطلبة، حيث كان يحضر مجالسهم بين الفينة والأخرى...

[illegible]



الصفحة الثانية من الكتاب

وقد خصص المؤلف حيزا من كتابه للعلماء الذين كانوا يعيشون على عهد مولاي سليمان مصدرا بقطب المغرب الشيخ التاودي بن سودة ثم ولده أبي العباس أحمد الذي ولى قضاء فاس... والشيخ عبد القادر بن شقرون والطيب بن كيران والديوري والعراقي والمنجرة وبرادة الخ.

وقد تخلص من هذه اللائحة الطويلة إلى ذكر لائحة للعلماء الذين (سمع بهم في غير مدينة فاس) فذكر جملة طيبة من عيون الفقهاء والأدباء كان فيهم من حضر المؤلف مجلسه بمراكش في جامع ابن يوسف...

ومن طريف ما يحكيه ما يتعلق بسجلماسة التي كانت ما تزال معروفة العين على عهد مولاي سليمان ومولاي عبد الرحمان...

وبعد هذا ينتقل المخطوط لذكر كتاب السلطان مولاي سليمان فيذكر منهم ابن الصديق الريسوني واليمني بوعشرين المكناسي وبناني دفين القيروان أثناء ذهابه للحج...

وفي أثناء حديثه عن الحوادث التي جرت في أيام السلطان مولاي سليمان... ذكر منها قيام عبد القادر بن الشريف في بادية الجزائر الذي أغار على ثغر وهران وتلمسان حيث تتابعت الحروب بينه وبين الترك مدة طويلة الأمر الذي تسبب في هجرة عدد كبير من أهل تلمسان إلى ديار المغرب وخاصة بفاس فرارا من جور الأتراك على حد تعبير المؤلف، وفي نفس الوقت ثار ابن الأحرش أيضا على الأتراك الذين اشتد حنقهم على كل الاعراب «فلا يقدر أحد من الناس أن يدعى أنه من أصحاب مولاي العربي الدرقاوي !!».

وبعد أن يتحدث عن مصرع أحدهم كانت له معرفة بما سماه «الخَنْقَطِيرَة» ـ السحر ـ تعرض للكيرة (الحرب) التي شبت بين باي تونس وباي الجزائر حيث قدم وصفا للصدام الذي حصل بين الإيالتين زمانا طويلا إلى أن صالح بينهما السلطان العثماني... وهنا يأتي المؤلف بمعلومات عن أسباب هذه (الكيرة) وعن مصرع مصطفى باشا حاكم الجزائر الذي كان أعجوبة الدنيا في النهم والشره !

ويتحدث المؤلف كذلك عن الكيرة التي نشبت بين ولاية الجزائر وبين الإنجليز في شهر شوال 1229 = شتنبر ـ اكتوبر 1814 حيث احتلت المراكب الإنجليزية الميناء وأخذت تقصف المدينة بالكور، «والبنب» طوال ثمان ساعات لم يبق فيها برج ولا دار ولا بناء إلا وتأثر من فعل الاغارة بما في ذلك منار المرسى الذي كان من أعجب مصانع الدنيا بناء واتقانا وصيانة... تفصيلات هامة عن هذه الحادثة(2م) التي أعقبتها الثورة على عمر باشا وتولية أحمد باشا الدرقاوي مكانه لأن هذا الأخير كان يميل للعرب وكان يصر على أنه لا يبقي تركيا في بر الجزائر..! حيث لم تلبث دولة الأتراك أن انقرضت وانطوى بساطهم...

وبهذه المناسبة يستطرد بذكر أحد البحريين المجاهدين من إيالة الجزائر يحمل إسم (حميدو) الذي ورد على السلطان مولاي سليمان فأكرم مقدمه قبل أن يساعده على العودة برا إلى بلاده...

وقد ذكر من الحوادث التي جرت أيام السلطان مولاي سليمان دخول بني الأصفر (الفرنسيين ـ نابليون) إلى مصر سنة 1212 = 1797 ـ 98 حيث

2م) مولود قاسم نايت بلقاسم : شخصية الجزائر الدولية ج 1 ص 200.

يقدم لنا معلومات مطرفة، ونقرأ عمن فر بنفسه من المصريين نحو السودان أو طرابلس على ما سمعه المؤلف من أهلها... وبالإضافة إلى ما ورد في صلب الكتاب نجد تعليقا بحاشية المخطوط عن وقعة دخول الفرنسيس لمصر نقلا عن كتاب (تحفة الناظرين) للشيخ عبد الله الشرقاوي...

لقد بقي المؤلف مع الحديث عن مصر المحتلة حتى خرجت فرنسا منها بسبب محاصرة إنجلترا، وبسبب وقعة الجزار بالشام التي يستعرضها المؤلف.

وقد بقيت مصر فوضى إلى أن اتفق أهل مصر مع من كان معهم من الأتراك على تولية الحاج محمد علي باشا... بمساعدة الترك والمغاربة.

ومن المعلومات التي اشتمل عليها المخطوط ما يتعلق بالأمر الذي وصل من أسطنبول سنة ست وعشرين = 1811م إلى محمد علي يأمره بالمسير إلى الحرمين لقتال الأمير سعود الوهابي، حيث يحاول المؤلف تقديم الأمير سعود حسب ما سمعه من أهل مصر... كان يضرب الناس إذا رآهم يقرأون دليل الخيرات ! وكان أصحابه لا يدعون أحداً يزور قبر النبي ﷺ، وإن وجدوا أحداً ضربوه إذا كان آفاقيا، ومن ذلك ما وقع لوالدنا رحمه الله في سنة خمسة عشر = 1801م... وكنت معه يقول المؤلف، وكان الأمير سعود ينهى الناس عن شرب الدخان وحلق اللحا...! ولم يكن يفعل شيئا من هذا «الناموس» الذي يكون للملوك، فإذا رأيته ظننت أنه واحد من قومه... وكان الوهابيون أشد الناس بغضا للأتراك...

وبعد هذا التقديم يعود لتتبع حملة جيش محمد علي ضد الوهابيين الذين هزموا الجند الأمر الذي دعا محمد علي لتعزيز الحملة = بابنه إبراهيم...

حيث انحصر الوهابيون في «الدرعية» لعدة سنوات. إلى أن تم الصلح فدخلها الأتراك وهدموا أسوارها... حديث طويل عن الحركة الوهابية لكنه يتركه معلقا إلى أن يتحدث عن أحد الشيوخ التونسيين بالجامع الأزهر يسمى أبا الحسن علي الميلي... الذي نراه يحمل حملة عنيفة على الشيخ حمدون ابن الحاج بسبب قصيدة هذا الشيخ التي مدح فيها الأمير سعود الوهابي، وكان سبب القصيدة ـ يقول المؤلف ـ أن أبا إسحاق مولاي إبراهيم بن السلطان مولانا سليمان لما أراد التوجه لأرض المشرق بنية الحج ظهر لأبيه أمير المؤمنين أن يوجه معه كتابا يستعطف فيه الوهابي لأنه كان أمير مكة في ذلك الوقت وخاف أن يمنع ولده من الوقوف بعرفة... فلما كتب له الكتاب كتب معه قصيدة يمدحه بها...

إن هذا الحديث عن الحركة الوهابية يمكن أن يفيدنا حول مدى مصداقية ما يكتب حول الموقف المغربي من الحركة الوهابية..!!

وينتقل المؤلف بعد هذا إلى ما أحدثه محمد علي في مصر مما لم يكن معروفا فيها من صناعة النسيج على اختلاف أنواعه تقليدا للأفرنج : الفرنسيس والإنجليز والنمسا... ويتحدث عن الطربوش الذي يصنع هناك على الشكل التونسي، وعن صناعة الحرير والقطن واستعانته بأهل الشام الخ...

أنه وصف دقيق ومسهب لنهضة مصر على ذلك العهد بما في ذلك معامل السكر الذي يصنع على شكل السكر الأفرنجي...

لقد أطنب المؤلف في الحديث عن نهضة مصر بما فيها إنشاء الخلجان لإيصال ماء النيل إلى الأماكن النائية، وبما في ذلك أيضا إرسال البعثات

العلميـة إلى «بر النصـارى» يتعلمـون الطب والتـوقيت والهنـدسـة والحسـاب وعلوم البوصلة وصناعة المجانات وغير ذلك...

ويتخلص من هذا للعودة إلى تمهيـد أرض الحجـاز كلهـا من مصر إلى مكة حيث أمن الناس على أنفسهم ومالهم فكانت القافلة تسـافر ولا يتعرض لها أحد... ولما تحدث عن فتك محمد على بالغز فتكتـه الكبرى قـال : هكـذا سمعنا من عامة الناس والعلم عند الله !

والمؤلف لا يغفل الحديث عن عدل محمد علي واستقامتـه ضـاربـا المثل بالأحداث التي سمعها وكان منهـا اقتصـاصـه من أحـد الجنـد لاعتـدائـه على أحدهم في أسواق خان الخيلي...

وحتى يعطينا المؤلف الـدليل على صلتـه المستمرة بـأهل العلمـاء تطوع بـذكر بعض «الـذين أدركنـا منهم في حـدود سنـة أربعين ومـائتين وألف (1824 = 1825) نحـو المـائتين كلهم يـدرسـون العلم في الجـامـع الأزهر من الشافعية والمالكية والحنفية والحنابلة». ويذكر هنا المؤلف طائفـة من علمـاء كل مذهب، وكان ممن ذكرهم من المالكية الشيخ عبد الجواد الشبـاسي الـذي يدخل الجامع قبل الشروق ولا يخرج منها حتى يصلي العشاء !

لقد كان المؤلف ملازما له في كل ما يدرسه، وكان يواسي هـذا المؤلف الذي يقول عن نفسـه : إنه كان مقلا بلغ بـه الفقر مبلغـا عظيمـا، رحم اللـه الجميع...

لقد عدد طـائفـة من شيوخـه في الأزهر وكان منهم من هو من أصل مغربي... وقـد اجتمع المؤلف لـما دخل القـاهرة سنـة ثلاث وثـلاثين (1818)

بأحدهم : أبي الحسن على الميلي سالف الذكر فعرض الميلي عليه المسائل التي يخالف الناس فيها قائلا : «إنه ألف تأليفا في الرد على الشيخ أحمد التجاني وقال فيه كيت وكيت» حيث نشعر هنا بأن المؤلف لم يكن على وفاق مع الميلي في رأيه حول الشيخ التيجاني الذي نعلم عن صلته بالعاهل المغربي السلطان مولاي سليمان...

لقد طال الحديث عن هذا الميلي الذي يظهر أنه كان من العلماء «المشاكسين» الذين يجدون المتعة في المبارزات والمناطحات على ما نقرأه في المخطوط من اصطدامه أيضا بأحد العلماء المغاربة من الحجاج الذين مروا بالقاهرة، ويتعلق الأمر بالشيخ سيدي محمد بن بدر الدين الحومي شارح المرشد المعين...

وبعد أن يأتي على عدد من شيوخه بمصر ينتقل لشيوخه بتونس فيذكر شيخ الجماعة أبا إسحاق الشيخ إبراهيم الرياحي حيث كان المؤلف ـ على ما يحكي ـ يتردد على مجلسه في جامع صاحب الطابع الذي يقع في رباط تونس وهو مسجد بديع الحسن والاتقان... ويستطرد المؤلف بذكر أن الرياحي هذا له قصيدة في مدح السلطان مولاي سليمان أجازه عليها بمائة ضبلون (DOBLÔN) من الذهب وقدم إلى فاس في حدود العشرين ومائتين (1805) وأخذ العهد عن الشيخ أحمد التجاني وأجازه على أعمال الزاوية بتونس... وكان سفيرا لدار الخلافة بعثه إليها أحمد الباي أحمد، هذا علاوة على سفارته* لدى ملك المغرب.

وبعد أن يتحدث عن شيوخه بمكة يعود مرة أخرى للحديث عن محمد علي... وهيامه ببناء الجسور وتعمير البلاد وإنشاء الصنائع...

ويأتي المؤلف هنا بمعلومات عن تمرد الإغريق على الباب العالي ورفضهم للبقاء «تحت الذمة» عام 1245 ـ 46 (1830 ـ 1831) الذي يصادف انتزاع الجزائر من يد الأتراك ! احتكاكات تنتهي بقبول السلطان العثماني للأمر الواقع !

وهنا انفتح باب الخلاف بين الأتراك وبين الروس حيث اضطر السلطان العثماني أيضا لتقديم التنازلات التي كان منها أن يبني (الموسك) بيعة في بيت المقدس ليأتي الناس من أيالته إليها : فأنعم السلطان لذلك الأمر الذي أغضب محمد علي الذي رأى في ذلك إهانة للمسلمين حيث رأيناه يحمل السلاح لاحتلال بيت المقدس وإشهار الحرب ضد الباب العالي !!

وفي هذه الأثناء 1243 (1827 ـ 28) انقرضت دولة أشراف مكة التي استمرت قرونا طويلة فتم استيلاء محمد علي على أرض الحجاز أقصاها وأدناها على ما يتحدث عنه المؤلف في مرتين متواليتين... وفي إطار ربط المؤلف للأحداث بمصر وملك مصر يذكر أنه في أيام محمد علي حدثت الفتنة في طرابلس الغرب أيام يوسف باشا في (المنشية) خارج المدينة حيث دعا لنفسه، وتقاتل مع والده الأمر الذي أدى إلى تدخل الباب العالي للفصل في النزاع في حدود ستٍ و سبع وأربعين ومائتين (1831 = 32).

لقد أقام المؤلف بمصر ست سنوات وأشهراً كان فيها يحضر المجالس حيث وجدناه يخصص صفحات من كتابه لما جرى به العرف في تدريس العلوم بمصر القاهرة...

وفي أثناء ذلك المقام اغتنم الفرصة لأداء مناسك الحج مرة أخرى عام 1238 = 1823م حيث اجتمع بالشيخ الشهير أحمد ابن إدريس المغربي الأصل من (ميسور) والذي له اتباع كثيرون في اليمن والسودان...

☆ ☆ ☆

وبعد هذه الجولة الطويلة في الكتاب يعود بنا المؤلف أيضا إلى تاريخ السلطان مولاي سليمان الذي مكث في الملك ثمانا وعشرين سنة ظل فيها ملكا محبوبا من أهل فاس إلى أن أسلم الأمر لابن أخيه الأمير مولاي عبد الرحمن أولا كخليفة له على أهل فاس، لكنه لم يلبث أن التحق بالرفيق الأعلى فظهرت وصية السلطان مولاي سليمان بواسطة الحاج الطالب بن محمد بن جلون على أن يكون مولاي عبد الرحمن أميرا للمؤمنين من بعده...

وقد تحدث المؤلف عن المسغبة التي حلت بالبلاد في هذه الأثناء لدرجة كان القمح فيها يجلب من مصر ومن أرض إفريقيا بل ومن أرض (الموسك) كما يقول المؤلف المذكور...

ولم يغفل المؤلف الحديث عن «العداوة التي نشأت بين أهل الجزائر وبين عدو الله الفرنسيس حيث فصل الكلام عنها مبديا عواطف المغرب ومشاعره نحو جيرانه وهم يتعرضون للغزو ! لقد كان حديثه عن هذا العدوان طويلا لم يهمل فيه أسطورة «المروحة» التي يرويها المؤرخون عند حديثهم عن احتلال الجزائر... كما أنه لم يهمل تطارح أهل تلمسان على العاهل المغربي يطلبون حمايته والدخول تحت طاعته الأمر الذي استجاب له السلطان مولاي عبد الرحمن الذي خاب ظنه في سلوك من بعثهم للقيام بالمهمة...

ويعود المؤلف للحديث عن توالي الغزو الفرنسي لتلمسان وقسنطينة وعنابة... وفي معرض حديث المؤلف عن بعض الأحداث التي جرت بفاس يفيدنا أن الجنان الكبير الذي يحمل إسم جنان أبي الجنود[3] (أتى هذا الإسم من أن الجنان المذكور كان يحتوي على برج مزود بنحو عشرة مدافع وبعدد من الجنود). كان مملوكا للسلطان مولاي عبد الرحمن وكان يربط بين فاس الجديد وفاس القديم، وله بابان أحدهما من ناحية فاس الجديد والآخر تنفذ لفاس القديم...

وفي حديث عن أحداث سنة 1253 ـ 54 1837 ـ 39 تحدث عن فتنة أخرى وقعت بطرابلس الغرب بين يوسف وحفيديه... حيث ضرب الحصار على المدينة نحوا من ثلاث سنوات إلى أن وصل من السلطان محمود خان مبعوث يحمل إسم طاهر باشا معينا مكان يوسف الذي كان كما يقول المؤلف آخر أمرائها المستقلين بها...

وهنا ينتقل المؤلف لتسجيل بعض مذكراته الخاصة حيث نجده عام 1254، (1838م) يعين بدار المخزن : (مقر الحكومة) مساعدا لأمين الصائر... ولم يلبث أن عين ضمن الكتاب...

---

3) ينبغي التنبيه هنا على أن الباب الموجود حاليا والذي يحمل خطأ اسم باب الجلود، باللام عوض النون، إنما سمي بهذا الاسم لأنه كان قريبا من باب قديم يحمل اسم باب جنان أبي الجنود... أما الباب الموجود الآن والمزخرف بالزليج فإنما أنشئ عام 1913 بعد الحماية الفرنسية، أنشأه المجلس البلدي بفاس وحمل في الوثائق المعاصرة اسم (باب المجلس) لكن هذا الاسم طغا عليه الاسم القديم الذي هو ـ كما قلنا ـ اسم الباب القديم : أبو الجنود.

وهنا يستعرض بعضا من هؤلاء مثل الكاتب الشاعر محمد غريط... والأديب علي الجناوي والقاضي المعطي الأوراوي، والعربي بن المختار الجامعي، والحسين أغناو... ومحمد بن أحمد بن سليمان ومحمد السطي والشاعر السعيدي... وعبد الرحمن الشرقي... والأديب الشهير أبي العلاء إدريس بن محمد بن إدريس، وأخيرا «رئيس الكتاب الآخذ بحلقة الباب «محمد بن إدريس الذي يتأكد أن للمؤلف صلة قوية به علاوة على أنه من كتابه، حيث يكثر الحديث عنه ويمعن في إبراز أخباره وآثاره «ولقد كان لنا بمنزلة الوالد فشفقا من حالنا معتنيا بشأننا... عاشرناه تسع سنين... فما سمعنا منه شيئا يكدرنا وكان يلاطفنا ويرفعنا في مجلسه... كان ابن إدريس يسكن رباط الفتح عند باب الدار العلية، علاوة على داره بمراكش... كلام طويل عن شخصية الرئيس ابن إدريس الذي أمسى لا يفارق السلطان مولاي عبد الرحمن، لقد كان ابن إدريس يحب السماع وينتعش به، ويشتاق لسماع الطبوع وأوزان الشعر ويحفظ من كلام الناس ما تملأ به الدواوين وله قصائد في المدح لا تنحصر... وله قصائد تقرأ بين يدي السلطان بمناسبة المولد، وبمناسبات أخرى حيث يورد المؤلف نماذج من هذه الأشعار التي تناولت عددا من الموضوعات بما فيها الشاي..! وكم تكون مفيدة لمن يهتم بدراسة الرئيس ابن إدريس[4]...

---

4) EL – FASSI (Nacer) Mohamed Ibn Idris, H.T. 1962, vol. III Fasc. 1.pp. 43 – 62.

الناصر الفاسي : محمد بن إدريس، مجلة البحث العلمي، العدد الأول، السنة الأولى شعبان، ذو القعدة 1383 يناير ـ أبريل 1964.

وبين هذا وذاك تعن للمؤلف فوائد وفرائد لا يتردد في إيرادها على نحو ما نراه وهو يتحدث عن الشيخ عمر بن المكي الشرقي الذي كان : يجتمع مع الجن : وقد وجد في كتبه كناش فيه خط الجني شمها روش !!

وبعد أن يفيض في أيام عز الرئيس محمد بن إدريس يعود لأيام نكبته عند ما كثرت الوشايات حوله.

قال المؤلف : إن ابن إدريس أخبره يوما وهو راكب معه ذاهبين لشالة في سنة إحدى وستين (1845)... إن قاضي فاس بعث كتابا للسلطان كان ورد عليه من يوسف بن بدر الدين المدني فقرأه السلطان فوجد في عنوان الكتاب بخط القاضي : «انظر ما يفعله هذا الذي يخدعك ويظهر أنه ينصحك»... ففتحه السلطان فإذا فيه خط يوسف مخاطبا للقاضي المذكور مصمنه «السلام عليك أما بعد فإن ما تحدثت به مع السلطان في حقك إنما حملني عليه الوزير ابن إدريس، هو أمرني بذلك...».

وقد شعر مؤلف المخطوط بضرورة التعريف بتلك الشخصية المشرقية وهنا عرفنا عن لقطة تاريخية تتصل بالعلاقات بين المغرب وبين العثمانيين على هذا العهد.

لقد كان يوسف هذا من أدباء المشرق ورد على السلطان المولى عبد الرحمن سنة 1257 = 1841 فأكرمه وأغدق إليه، ولما أراد الرجوع إلى القسطنطينية عهد إليه السلطان بإبلاغ رسالة تعزية وتهنئة للسلطان عبد المجيد خان في إعقاب وفاة السلطان محمود خان...

وقد قام يوسف بما عهد به إليه وعاد في السنة بعدها بجواب عن التهنئة حيث أنزله السلطان عند ابن إدريس الذي بالغ في إكرام ضيف السلطان...

وقد سافر ثم رجع مرة أخرى بعد سنة فأكرمه السلطان بمثل إكرامه في المرتين السابقتين، فسافر ولما بلغ لجبل طارق كتب للقاضي في شأن الوزير بما ذكر..!!

ويخبرنا المؤلف بهذه المناسبة بورود شخصيتين أخريين على المغرب، ويتعلق الأمر ببواب بيت الله الحرام أبي الربيع سليمان بن محمد الشيبي القرشي المكي... وكذلك أمين الأنصاري المدني... الثلاثة صادفتهم الأيام بفاس... وقد ورد إثر هؤلاء الثلاثة العلامة أبو عبد الله الشيخ محمد صالح البخاري صحبة زوجته، وقد انتفع بعلمه خلق كثير حيث أقام سنة أو تزيد...

وقد استقبله السلطان مولاي عبد الرحمن في جنانه الكبير أبي الجنود قبل أن يعود إلى المشرق عبر طنجة حيث اجتمع به المؤلف أيام إقامته بها في الخطة المخزنية أثناء رحلته للشمال حيث يقدم لنا معلومات ثمينة عن بعض رجالات المنطقة كالفقيه غيلان والشيخ الحراق والقائد أشعاش...

وبعد أن يأتي أبو العلاء إدريس بطائفة من الفوائد التي تتعلق بالخطة... علاوة على مجموعة من عيون الشعر... يعود إلى الفوائد والفرائد فيغرق فيها قبل أن نجده في الورقة 211 يقول :

وهذا أوان التعرض لما شهدناه من سياسة أمير المؤمنين وناصر الملة والدين أبي زيد مولانا عبد الرحمن بن هشام أدام الله نصره وأيده بتأييده المبين...

وهنا يأخذ في ذكر بعض المنشآت العمرانية للعاهل المذكور في مختلف جهات المغرب... ثم يتحدث عن الرسائل التي بعث بها السلطان مولاي عبد الرحمن لجميع عماله في شأن أهل الذمة وأمرهم أن يقبضوا منهم الجزية التي أمر بها الشارع، وهذا الأمر يشير إلى الحدث الذي وقع في عهد هذا الملك مما يتصل بوضع اليهود في المغرب مما أشرنا إليه في كتابنا حول التاريخ الدبلوماسي للمغرب[5]...

وبعد هذا عرض لكثير من المآثر التي دأب على اتباعها في مملكته : في إحياء ليلة المولد وليلة القدر... وصلة العلماء والأشراف بمناسبة الأعياد...

وكان من طبيعة العاهل أنه لا يتطير ولا يتشاءم ولا يتراجع عما قرره مهما كانت الظروف... وكان أثناء سفره يقصر الصلاة ولو أقام في الموضع شهرين ! معتمدا على فتوى العلماء الذين يسافرون معه... هذا إلى المجالس العلمية التي لم يكن يستغنى عنها حتى أيام أسفاره.

وتكون فرصة للمؤلف ليقدم لنا لائحة بأساتذة الحديث على ذلك العهد : السجلماسي المكناسي، والكوهن، وابن كيران[6]...

---

5) د. عبد الهادي التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب، المجلد الثاني، مطبعة فضالة 1407 = 1986. ص 251.

6) د. محمد الأخضر : الحياة الأدبية في المغرب على عهد العلويين، دار الرشاد ـ البيضاء 1977 ص 345.

ومن الطريف أن نجد في هذه المخطوطة الإشارة إلى نوع من الصادرات المغربية إلى الخارج مما يخفى على كثير ممن يهتمون بالتجارة الخارجية للمغرب، ويتعلق الأمر ببيع (العلق الطبي) الذي ـ كما نعرف ـ تستعمله المشتفيات الأوروبية لتجديد الدم...

وهذه المعلومات يؤيدها الأرشيف الأوروبي الذي يتحدث عن هذه المادة : «ففي أيامه حدث العلق الذي يخرج من المروج حيا ويباع في بر الأفرنج بالمال الثقيل وكان الناس لا يعرفونه قبل ذلك... وبهذه المناسبة ذكر جملة من البضائح المغربية التي توسق للخارج : قشر الشجر الصالح للدباغة ـ الصوف[7].

كما تحدث عن بعض المعادن التي اكتشفت في المغرب على عهد السلطان مولاي عبد الرحمن : النحاس في ساحل طنجة وتطوان، والحديد في ساحل الرباط ـ الكبريت قريبا من فاس...

وفي معرض اهتمام السلطان مولاي عبد الرحمن بتنظيم الجيش على الطريقة العصرية أتى بهذه الفقرات التي تدل على صدق المحاولة :

وفي سنة ثلاث وستين (ومائتين وألف) (1847) زاد في جيشه العسكر ولكن لم يتم له نظامه لأنه من أخلاط الناس، وأراد أن يجعله على قانون الترك فلم يستقم له ذلك لتعذر وجود القانون في المغرب فأمر عامليه اشعاش وازطوط بجعل النظام على قانونه المعروف عند الترك فشرعا فيه...».

---

7) P.G: Rogers : A History of Anglo – Moroccans Relations P. 158

ويفيد من خلال عرضه أن الذي عوض ابن إدريس في الرئاسة كان هو العربي بن المختار الجامعي.

وفي معرض حديثه عن منشآت السلطان مولاي عبد الرحمن يؤكد مرة أخرى على جنانه بفاس : حيث كان يجلس على الدكانة التي هي خارج بابه ويبقى الوادي تحته والبسيط المحروث أمامه... وبمراكش كان عنده جنان أكدال، وهو جنان لا نظير له في المغرب طولا وعرضا وفيه صهريجان كالبحر... وفي وسطه مصرية فيها قبتان[8]...

وبعد هذا يخصص فصلا طويلا للحديث عن «قيام الحاج عبد القادر ابن محمد محيي الدين... وعقده المهادنة مع الفرنسيس على مال يدفعه الفرنسيس، وكان يبعث لأميرنا يستنجده بالمال والرجال... وكان العاهل يسميه في الرسائل بالولد البار بينما يسميه الآخر بالوالد بل وخطب به وبعث له بالبيعة، وكان يقول : إنما أنا نائب عن مولانا عبد الرحمن بن هشام... ويأتي المؤلف هنا بالنص الكامل للجواب الذي بعث به ملك المغرب لمحل الولد البار حول فضيلة الجهاد ويذكره بانتصار المغرب على عهد السعديين في غزوة وادي المخازن...

ويكشف المؤلف هنا عن أن الذين ساعدوا فرنسا على دخول تلمسان هم الكرغلان الذين أسروا العداوة لابن محيي الدين... وبعد أن يتحدث عن النقمة التي نزلت بالمغرب بسبب مناصرته لجيرانه، ذاكرا قصف طنجة

---

8) د. التازي : عرصة النيل بأكدال مراكش.
المناهل 28 ربيع الأول 1404 دجنبر 1983 ص 102.

وقصف الصويرة... يكشف عن أنه لما ساءت نية بن محي الدين وبلغ للعاهل المغربي أنه كان يحاول استفساد الرغبة، وجدنا أن السلطان يتحرك لإرجاع الأمور إلى نصابها وهنا بعث ابن محي الدين برسوله البوحميدي معتذرا طالبا للصفح... وتمت الملاقاة في جنان أبي الجنود...

فكان مما دار في الحديث :

مولاي عبد الرحمن : ماذا تريدون ؟

البوحميدي : نريد خاطرك ورضاك والعفو عما سلف من الذنب !

مولاي عبد الرحمن : اسمع أقول لك، إن أصدق الحديث إلى الله أصدقه، وإني لا أقبل منكم إلا خصلتين اما الدخول لداخل الايالة لتنزلوا عندنا في عز وإكرام، واما أن تخرجوا من الايالة وتتوجهوا حيث شئتم ولا أقبل منكم غيرهما.

البوحميدي : أمهلنا حتى نراجع ابن محي الدين فيما طلبته.

مولاي عبد الرحمن : أنت في أمان ومهلة.

لكن الجواب لم يأت بل حصل ما يؤكد فساد النية... وهكذا كان ما فصله المؤلف ـ وهو شاهد عيان ـ في ورقة 230 / 231 / 232 / 233 / 234 / 243.

ويتحدث الكتاب في أعقاب هذا عن سفارة الحاج عبد القادر أشعاش إلى ملك فرنسا سنة إحدى وستين ومائتين وألف (1845) على رأس وفادة من أعيان تطوان حيث صحب معه وحوشا وخيلا وتحفا وطرفا، واحتفل الفرنسيون به وأكرموه وأروه من عجائبهم، حيث نجده يبعث بخطاب للسلطان يتضمن الأخبار بما لقى من المبرة، يذكر المؤلف نصه...

وجوابا على هذه السفارة بعث «الطاغية» سفيره إلى أمير المومنين وكان يومئذ بمراكش فأنزله في عرصة «المأمونية» وهي من أفخر أجنة المخزن في مراكش... وتلاقى معه في قبة الصويرة وناوله كتاب سلطانهم، فقال له مولاي عبد الرحمن «إنكم اليوم جيراننا وسنكون معكم كما كان أسلافنا معكم...»...وكان السفير مصحوبا بعدد من الهدايا فيه ستة مدافع من نحاس جديدة محمولة على كراريط مزوقة، وكل مدفع معه إقامته وأربع أفراس من إناث الخيل الفارهة الجيدة. ويتعرض المؤلف لإرسال ابني السلطان مولاي عبد الرحمن : مولاي سليمان ومولاي الرشيد إلى أداء مناسك الحج بواسطة مركب إنجليزي حيث زودهما بهدايا فاخرة إلى أمير مصر عباس : كانت تشمل على الخيول والسروج المذهبة والبغال الفارهة والتحف والطرائف... كما زود ابنه بمبالغ من المال للصدقة على المحتاجين في الحرمين الشريفين...

ومن المفيد أن نستفيد هنا أن قبر السلطان يوسف بن تاشفين كان متصلا بعرصة المهندس محمد المزوضي التي عرف كيف يوصل عينا إلى عرصته عن طريق باب الرب...

ويتحدث الكتاب في أحداث سنة 1263 = 1847 عن سفر بأي تونس لباريز بواسطة «بابور النار» حيث اجتمع هناك بالطاغية للاحتماء به خوفا من عبد المجيد خان...

وقد خصص المؤلف هنا كذلك حيزا جديدا لتقديم بعض علماء عصره، وخاصة منهم علماء جامع القرويين إلا أن بترا قاسيا ـ كما أشرنا ـ ضرب الورقات 246 / 247 / 248 / 249 / 250، فحرمنا من معرفة عدد من أولئك... إلى أن وصل لاسم المدرس محمد قصارة ومولاي الهادي الأمراني، والحاج الطالب بن عبد الرحمن السراج الأندلسي...

وقد انتقل لذكر علماء غير فاس فذكر من مراكش الفضيل السراغني خطيب جامع بن يوسف وعبد القادر الدباغ... ومحمد عاشور الرباطي الأندلسي... هذا ولا يخلو المؤلف من تكرار معلومات كان قدمها وسها عنها، كما لا يخلو من ذكر بعد الخرافات والأساطير... والتصرف في بعض النقول...

وبمناسبة تعيين الحاج عبد اللطيف فرج عاملا على الرباط يسوق المؤلف ظهير تسمية العامل في هذا المنصب، والعاهل يطلب إلى أهل الرباط أن يسمعوا له ويطيعوا في جميع ما يأمرهم به...

كما يسوق ظهيرا جديدا حول مجاهرة «مسلمي الرباط» بشرب الخمر واجتماعهم عليه في أنديتهم... وكان الكتاب من إنشاء الرئيس ابن إدريس..!

ومن المعلومات الطريفة التي احتضنتها المخطوطة ما يتعلق بفهرس الخزانة العلمية للسلطان مولاي عبد الرحمن التي توجد بمراكش حيث دخل الكتاب وجلسوا لسردها وترتيبها ثلاثة أيام وعدوها فوجدوها 850 مجلد من جميع الفنون... هذه الخزانة علاوة على التي بداخل الدار وقد كان المؤلف ضمن الثلاثة الذين عهد إليهم بترتيبها سنة 1262 = 1846، وقبل هذا سرد الكتب التي في خزانة مكناسة الزيتون فوجدها تزيد على ألف مجلد... وما بفاس يقارب هذا العدد أو يزيد عليه...

وكان مما قرب إلى فكرنا شخصية المؤلف حديثه (ورقة 268) عن رحلته إلى المشرق الرحلة الثالثة بعد أن خالطه شيبه سواد شبابه على ما يقول حيث نراه يودع مدينة فاس يوم الخميس 12 من جمادى الأخيرة

وذلك سنة 1266 26 مارس 1850 حيث أخذ باخرة إنجليزية من طنجة إلى جبل طارق، ثم مالطة، ثم عبر مراكب شراعية إلى الأسكندرية حيث التقى في مصر بالشيخ محمد عليش من فقهاء المالكية.

- الصفحة الأخيرة (280) من الكتاب.

ومن مصر خرجوا أواخر شوال متوجهين للسويس وركبوا في ساعية من السواعي فيها من الحجاج نحو الأربعمائة أو أزيد !

لقد صادفت هذا الظروف وجود وباء في مصر حيث كانت الموت تحصد الناس حصيدا... وهكذا كان الأمر في البقاع المقدسة، حيث كان الحجاج يتساقطون، وتأخر كثير من الناس عن الوقوف بعرفة لأجل ذلك ووقفنا يوم الثلاثاء... ولما حلوا بمنى شاع الموت فيهم شيوعا كثيرا...

ومع كل تلك الأهوال وجدنا المؤلف يبعث لصديقه الشيخ سيدي محمد السنوسي برسالة شعرية قبل أن يتوقف فجأة عن مواصلة الكلام...

لقد اختفى أبو العلاء إدريس دون ما أن يتمكن من تقديم نفسه على ما جرت به عادة المؤلفين، قد يكون سبب ذلك هو ما ناله من «شظايا» نكبة ولي نعمته ورئيسه الوزير العمراوي فهو يخشى أن يغضب الذين جلسوا في مكان الوزير السابق..!

وقد يكون ذلك لكون أجله عاجله فلم يبق له من الوقت ما يرتب به كتابه وما يراجعه كذلك حتى يحذف مكرراته ويلحق الأخبار بعضها ببعض حيث نلاحظ أنه قد يتحدث عن الموضوع ويعود إليه مرة أخرى وربما مرة ثالثة ورابعة...

وسيبقى على الذين يحققون الكتاب أن يعرفوا المزيد من أخبار مؤلفه الذي رأيناه كثير الحركة فهو في داخل المغرب بين فاس ومراكش والرباط ومدن الشمال... وهو خارج المغرب مقيم بمصر لفترة طويلة... ومتردد على ديار الحج عددا من المرات كانت آخرها هي التي أدركه فيها الصباح... فسكت عن الكلام المباح !

الرباط **د. عبد الهادي التازي**